التفاضل بين الأنبياء في القرآن والسنة

دراسة موضوعية

ID No. 540

(PP 355 - 371)

https://doi.org/10.21271/zjhs.27.3.22

محمد شريف محمد عثمان

كلية العلوم الإسلامية، جامعة صلاح الدين-أربيل

mohammedshareef.othman@su.edu.krd

الاستلام : 2022/08/27

القــبول : 2022/11/13

النـــــشر : 2023/07/25

ملخص

يتناول البحث دراسة للآيات والأحاديث الصحيحة الواردة في مسألة التفاضل بين الأنبياء, والبداية مخصصة للإجابة عن تساؤلين أولهما: امكانية التفاضل بين الأنبياء عقلا وثانيهما: جواز التفاضل بينهما شرعا, بعدها يتم مناقشة الآيات والاحاديث الصحيحة الواردة في حق الأنبياء السابقين, ثم نتحول الى مناقشة ما ورد في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم, ونختم بأهم النتائج التي توصل اليها البحث.

الكلمات المفتاحية: التفاضل، الانبياء، الآيات، الاحاديث.

1- المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين, و بعد:

إن كل من يتابع الآن ما يكتب و ينشر في موضوع التفاضل بين الأنبياء يجد أن مسألة فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء أصبحت مسألة مسلمة لا نقاش فيها, رغم ما ورد من نهي في التفاضل بين الأنبياء, و ذلك بسبب ما اعتاد عليه معظم الباحثين في هذا الموضوع من اللجوء بداية إلى ذكر الآيات والأحاديث التي تظهر فضله صلى الله عليه وسلم, ثم يعرجون إلى ما ورد في فضل أنبياء آخرين, فإن وجدوا فيها ما يوهم في تصورهم أنها تدل على خلاف ما هم عليه من رأي أسرعوا إلى تأويلها بشتى الوسائل المتاحة أمامهم؛ من غير أن يأبهوا بالأضرار الناجمة عن آثار مثل هذه التأويلات, ناسين أو متناسين أن كل أمر أو نهي ورد في القرآن الكريم أو السنة النبوية إنما ورد لحكمة توجب علينا الالتزام؛ سواء أكانت الحكمة تلك ظاهرة فعرفناها أو خفية فجهلناها, ويجب أن يكون الالتزام أشد عندما يكون الأمر أو النهي متعلقا بالعقيدة, هذا ما حثني على التفكير في الموضوع والبحث فيه للوصول إلى الحق عن طريق عرض إشكالية البحث على العقل أولا والشرع ثانيا مع الحرص الشديد على عدم الخروج عن مدلول آيات القرآن الكريم ومفهوم السنة النبوية الصحيحة راجيا من العلي القدير التوفيق والسداد هو ولي في الدنيا والآخرة وهو نعم المولى ونعم النصير.

خطة الدراسة:

تتضمن هذه الدراسة مقدمة, ومبحثين, وخاتمة

يحتوي كل مبحث ثلاثة مطالب: يتضمن المبحث الأول: الباعث على تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء, وامكانية التفاضل بين الأنبياء عقلا, وجواز التفاضل بينهم شرعا. ما البحث الثاني فيتضمن: أقسام الفضل, ونهي النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيل شخصه على غيره من الأنبياء, ومناقشة بعض الأحاديث الواردة في فضل نبينا صلى الله عليه وسلم.

2- **التفاضل بين الأنبياء:** أهم ما يثير الانتباه في التفاضل بين الأنبياء اقبال الناس عليه رغم النهي الوارد عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ولبيان سبب ذلك نبدأ بالكلام عن الباعث عليه.

2-1- الباعث على تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء

مما لا شك فيه أن الباعث على تفضيل نبينا صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء هو محبته صلى الله عليه وسلم؛ فهي واجبة على كل مؤمن ومؤمنة, و لا يكتمل إيمان عبد حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين, روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (البخاري, 1422هـ 12/1) و (مسلم , 67/1), ومحبتنا لرسول الله صلى الله عليه و سلم من محبة الله سبحانه وتعالى, و لكن كل من يدعي حب الله ورسوله عليه أن يسعى للفوز بحب الله له؛ لأن كونه محبوبا لله أهم و أعلى من أن يكون محبا له, و لا يحصل ذلك إلا باتباع أوامره ونواهيه, {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [آل عمران: 31], فمن يسعى لكسب حب الله عليه أن يحب الله ورسوله ويطيعهما أولا؛ لأن طاعة المحبوب عنوان محبته, و المحبة وإن كانت من أعمال القلب إلا أن آثارها يجب أن تنعكس على جوارح الإنسان و تظهر في العمل وعلى اللسان, في حدود شرع الله و الالتزام بتعاليم رسول الله خاليا من هوى النفس بعيدا عن الغلو و الاسراف, ولمعرفة الحدود التي حدها الشرع لحب رسول الله لا بد لنا من الاطلاع على ما ورد في حقه صلى الله عليه و سلم من آيات وأحاديث صحيحة تبين منزلته عند الله و مرتبته بين أنبيائه ورسله, وأن لا نتجاوز سقف الأدلة الموجودة بين أيدينا الواردة في حقه صلى الله عليه وسلم وحق غيره من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة و السلام, ولكن قبل الاسترسال في مناقشة تلك الأدلة علينا الوقف أمام مسألتين مهمتين هما:

1- إمكانية التفاضل بين الأنبياء عقلا 2- جواز التفاضل بينهم شرعا

ولن نمر على التفاضل بين الانبياء والمرسلين خوفا من الإطالة, والبداية مع المسألة الاولى:

2-2- إمكانية التفاضل بين الأنبياء عقلا

إذا أردنا أن نحكم بصدق وموضوعية في هذا الأمر يجب علينا أن نعرف على وجه الدقة عدد الأنبياء والمرسلين, ونحصي أفعالهم وصفاتهم وما صدر على لسان كل واحد منهم في هذه المسألة, وهذا ضرب من المستحيل؛ لأننا لا نستطيع الجزم بمصداقية ما تصلنا عنهم من أخبار إلا من خلال القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف, ولو رجعنا إلى القرآن الكريم فإننا نرى أنه لم يرد فيه إلا أسماء خمس وعشرين منهم مع نبذ قليلة مختصرة من صفاتهم وأفعالهم لا تسعفنا في إصدار حكم صائب عن التفاضل بينهم فضلا عن غيرهم ممن لم يرد لهم ذكر فيه من الأنبياء والمرسلين منذ بدئ الخليقة وإلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم, مع أن القرن الكريم يخبرنا في أكثر من آية أنه ما من أمة إلا وخلا فيها نذير قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر: 24] {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } [النحل: 36] { وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ } [القصص: 59] {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [يونس: 47] لكل أمة رسول هذا على أقل تقدير؛ لأن هنالك أمما أرسل إليهم مجموعة من الرسل مع قلة عددهم مقارنة بأمم أخرى كبني إسرائيل الذين قال الله سبحانه وتعالى في حقهم {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: 183] وربما كان هنالك أكثر من رسول في آن واحد الى أمة واحدة فقد ارسل الله سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام معا إلى فرعون وقال لهما: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى} [طه: 43] {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} [طه: 47] وأرسل ثلاثة من الرسل إلى قرية واحدة قال تعالى: {إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ } [يس: 14] هكذا توالت الرسل في تاريخ الإنسانية يتبع بعضهم بعضا لهداية الخلق إلى الحق قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [المؤمنون: 44] . فإذا كان لكل أمة رسول أو أكثر فما هو عدد المرسلين إلى أمم الأرض منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام وإلى خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم؟ لو بحثنا في مصادر الدين الاسلامي لا نجد إلا بعض الروايات الضعيفة للإجابة على هذا التساؤل أشهرها روايتان إحداهما عن أبي ذر الغفاري والأخرى عن أبي أمامة رضي الله عنهما وفي كلتاهما أبو ذر هو الذي يسأل النبي صلى الله عليه و سلم والنبي صلى الله عليه وسلم يجيبه:

الرواية الاولى: عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: (دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ وَحْدَهُ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّ لِلْمَسْجِدِ تَحِيَّةً وَإِنَّ تَحِيَّتَهُ رَكْعَتَانِ فَقُمْ فَارْكَعْهُمَا قَالَ فَقُمْتُ فَرَكَعْتُهُمَا ثُمَّ عُدْتُ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ .... قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمِ الْأَنْبِيَاءُ قَالَ مِائَةُ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمِ الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ

كَانَ أَوَّلُهُمْ قَالَ آدَمُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ قَالَ نَعَمْ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَكَلَّمَهُ قِبَلًا ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا ذَرٍّ أَرْبَعَةٌ سُرْيَانِيُّونَ آدَمُ وَ شيت وَأَخْنُوخُ وَهُوَ إِدْرِيسُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِالْقَلَمِ وَنُوحٌ وَأَرْبَعَةٌ مِنَ الْعَرَبِ هُودٌ وَشُعَيْبٌ وَصَالِحٌ وَنَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ كِتَابًا أَنْزَلَهُ اللَّهُ قَالَ مِائَةُ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةُ كُتُبٍ أُنْزِلَ عَلَى شيت خَمْسُونَ صَحِيفَةً وَأُنْزِلَ عَلَى أَخْنُوخَ ثَلَاثُونَ صَحِيفَةً وَأُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عَشْرُ صَحَائِفَ وَأُنْزِلَ عَلَى مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ عَشْرُ صَحَائِفَ وَأُنْزِلَ التَّوْرَاةُ والإنجيل والزبور والقرآن قال قلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَتْ صَحِيفَةُ إِبْرَاهِيمَ قَالَ كَانَتْ أَمْثَالًا كُلُّهَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُسَلَّطُ الْمُبْتَلَى الْمَغْرُورُ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَلَكِنِّي بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنِّي لَا أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ وَعَلَى الْعَاقِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا فِي صُنْعِ اللَّهِ وَسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَكُونَ ظَاعِنًا إِلَّا لِثَلَاثٍ تَزَوُّدٍ لِمَعَادٍ أَوْ مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيراً بِزَمَانِهِ مُقْبِلًا عَلَى شَأْنِهِ حَافِظًا لِلِسَانِهِ وَمَنْ حَسَبَ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى قَالَ كَانَتْ عِبَرًا كُلُّهَا عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ هُوَ يَضْحَكُ وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ عَجِبْتُ لِمَنْ رَأَى الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا ثُمَّ اطْمَأَنَّ إِلَيْهَا وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْحِسَابِ غَدًا ثُمَّ لَا يَعْمَلُ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي قَالَ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زِدْنِي قَالَ عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ وَذُخْرٌ لك في السماء).

وصف شعيب الأرناؤوط: إسناد هذا الحديث بالضعف الشديد بسبب إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني الدمشقي، الذي كذبه أبو حاتم و أبو زرعة، وعده الذهبي من المتروكين، وذكر أن له روايات أخرى عند الطبراني في الكبير, وابي نعيم في الحلية, و ابن ماجة وغيرهم, ولكنه حكم على جميعها بالضعف. ينظر: (ابن حبان, 1988م 76/2).

ذكر ابن كثير أن ابن حبانِ أورد هذا الحديث في كتابه الأنواع والتقاسيم ووصفه بالصحة بينما ابو الفرج بن الجوزي ضمنه في كتاب (الموضوعات) متهما ابراهيم بن هشام ثم ذهب الى أن الكثير من ائمة الجرح والتعديل تكلموا فيه بسبب هذا الحديث. ينظر: (ابن كثير, 1419 ه, 418/2).

الرواية الثانية: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ جَالِسًا وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ، فَأَقْصَرُوا عَنْهُ حَتَّى جَاءَ أَبُو ذَرٍّ فَأَقْحَمَ فَأَتَى فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ صَلَّيْتَ الْيَوْمَ؟ " قَالَ: لَا. قَالَ: " قُمْ فَصَلِّ ". فَلَمَّا صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ الضُّحَى أَقْبَلَ عَلَيْهِ .... قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَيُّ الْأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «آدَمُ» . قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ: أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ قَالَ: " نَعَمْ. نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا آدَمُ قُبْلًا ". قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَمْ وَفَّى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا» وصفه شعيب الارنؤوت: بالضعف الشديد كسابقه . ينظر: (الإمام أحمد, 2001م, 36 /618). وعلق ابن كثير على سنده: بأن فيه ثلاثة من الضعفاء معان بن رفاعة السلامي, وعلي بن يزيد, والقاسم أبو عبد الرحمن ثم نقل عن الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ: حديثا آخر عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَعَثَ اللَّهُ ثَمَانِيَةَ آلَافِ نَبِيٍّ: أَرْبَعَةُ آلَافٍ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْبَعَةُ آلَافٍ إِلَى سَائِرِ النَّاسِ» وعلق عليه قائلا: وَهَذَا أَيْضًا إِسْنَادٌ ضَعِيفٌ، فِيهِ الرَّبَذِيُّ ضَعِيفٌ وَشَيْخُهُ الرَّقَاشِيُّ أَضْعَفُ مِنْهُ والله أعلم. 418/2. ينظر: (ابن كثير, 1419 ه, 418/2) .

لو تتبعنا جميع الروايات الواردة في عدد الأنبياء والمرسلين فلن نقف على رواية يطمئن لها القلب و يمكن الاعتماد عليها, وهذا يعني أن الراجح في المسألة مذهب من توقف في اثبات العدد وأحال الأمر إلى علم الله عز وجل, فربما كان هذا مما استأثر الله سبحانه وتعالى بعلمه ولم يخبر به أحدا من خلقه قال تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا } [النساء: 164] , وليس عدد الرسل وحده هو المجهول بالنسبة إلينا فنحن لا نعلم إلا النزر اليسير عن تاريخ الإنسان في هذا العالم السحيق في القدم, ورغم أن الله سبحانه وتعالى فتح أمامنا المجال واسعا وترك الباب مفتوحا على مصراعيه لمن أراد سبر أغوار الماضي عن طريق البحث العلمي بقوله عز وجل: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [العنكبوت: 20] فإن العلماء لا زالوا عاجزين عن الاتفاق على زمن معين لبداية ظهور الإنسان على الأرض ولو على وجه التقريب, فتاريخ ميلاد الإنسان مجهول, والفرق بين آراء العلماء ونظرياتهم عن عمر الإنسان كبير إلى حد يصعب معه التصديق برأي أحد منهم دون الآخر, ولو أخذنا بأدنى الاحتمالات وتركنا الملايين من السنين التي يقول بها بعض العلماء جانبا, وقدرنا عمر الانسان بمئات الألوف من السينين فقط؛ فكم سيكون عدد الأمم التي عاشت على وجه الأرض منذ فجر الإنسانية وإلى عصر خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم, مع الأخذ بنظر الاعتبار الأمم البائدة التي لم يبق لها أثر في الوجود أو ذكر في التاريخ سواء أكان ذلك بسبب الحروب والأوبئة والكوارث الطبيعية مضافا إليها التخلف الحضاري

وغياب وسائل الوقاية والعلاج من الأمراض الفتاكة, أو بعذاب من الله سبحانه وتعالى نتيجة تكذيبهم لرسلهم, وفي القرآن الكريم عشرات الآيات الدالة على ذلك منها قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } [يونس: 13] وقوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) } [الفرقان: 37 - 40] وقوله تعالى: {فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ} [هود: 116، 117] فالآية الكريمة صريحة في أن القلة هي التي نجت باتباعها الرسل والدعاة إلى الحق والصلاح وأن الكثرة هلكت باتباعها الظلم والظالمين وافتتانها بأنواع الترف الباعثة إلى الإسراف والفساد.

إذا كان هذا حال أمم الأرض منذ مئات الآلاف من السنين, وإذا كان لكل أمة رسول أو أكثر ونحن لا نعرف شيئا عنهم و عن الجهود التي بذلوها والتضحيات التي قدموها في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل فكيف نستطيع أن نحدد الأفضل من بينهم؟ ووفق أي منطق نعطي لأنفسنا الحق في الحكم عليهم؟ ونحن لانعرف من خلال القرآن الكريم إلا أسماء خمس وعشرين منهم مع نتف قليلة جدا عن حياتهم و أعمالهم, بل وحتى هؤلاء المذكورين؛ فيهم من لم يذكر القرآن الكريم عنهم إلا أسماءهم (كإلياس و اليسع و ذي الكفل عليهم الصلاة والسلام), بينما الحكم في مثل هذه المسائل يستوجب منا معرفة كاملة بالأنبياء والرسل جميعا و إحاطة تامة بأخبارهم وصفاتهم, عندها فقط ربما نستطيع أن نحكم على ظواهرهم في الدنيا بناء على ما اتصف به كل واحد منهم من صفات حميدة, ومشقة كابدها في مجال الدعوة إلى الله, أما أمر الآخرة فهو مخفي عنا و عقولنا عاجزة عن إدراكه حتى في حق الذين نعيش معهم و نعرف الكثير من أسرارهم؛ لأن الأكرم عند الله هو الأتقى و درجات التقوى عند الناس تختلف من شخص لآخر و لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى.

هذا فيما يتعلق بإمكانية التفاضل بين الأنبياء عقلا أما إذا ثبت لدينا تقديم أحدهم بالفضل على الآخرين بأدلة قاطعة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فعندها يجب الإذعان لما دل عليه الدليل وهذا ما سنبحثه فيما يأتي.

2-3- جواز التفاضل بين الأنبياء شرعا

بما أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع يجب علينا العودة إليه أولا لمعرفة حكم الله تعلى في كل مسألة نسعى للوصول إلى حكمها و من الآيات التي تناولت هذه المسألة و وقف عندها المفسرون كثيرا آيتان هما:

1- قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253] .

2- قوله تعالى: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [الإسراء:55].

ظاهر الآيتين يدل على أن الله سبحانه وتعالى فضل بعض الرسل والنبيين على بعض ولكن ما هو نوع هذا الفضل وما المراد منه؟ هل معناه أن بعضهم خير من بعض؟ وهل الخيرية في الدنيا أم في الآخرة, أم أن معنى الفضل هنا هو الإحسان إليهم ابتداء بلا علة؟ للإجابة على هذه التساؤلات لابد لنا من معرفة معنى الفضل على وجه الدقة أولا ومراعاة سياق الآيات ثانيا, ففي معنى الفضل قال ابن فارس: الْفَاءُ وَالضَّادُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى زِيَادَةٍ فِي شَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الْفَضْلُ: الزِّيَادَةُ وَالْخَيْرُ. وَالْإِفْضَالُ: الْإِحْسَانُ. (ابن فارس, 1979) فكلمة (فضل) مجردة من السياق تحمل معنيين هما:

1- أن فضل بمعنى أحسن إليه وأنعم عليه بنعمة من نعمه سبحانه وتعالى. فمثال ما يراد منه الإحسان اليه ابتداء بلا علة كقوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [يونس: 107] وقوله تعالى: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [النحل: 71].

2- أن بعض النبيين خير من بعض. كقولنا فضل فلان على فلان كفضل القمر على سائر الكواكب نقصد أنه خير منه, و كقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } [الإسراء: 70] و كقوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ

وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: 95].

فالسياق هو الذي يحدد المعنى المراد في كل آية, وهذا يدل على أن هنالك احتمالان في تفسير الآيتين الواردتين في مسألة التفاضل بين الأنبياء وسنتطرق إلى كليهما فيما يأتي:

الاحتمال الأول: أن (فضل) في الآيتين بمعنى أحسن إليه وأنعم عليه بنعمة من نعمه سبحانه وتعالى.

لو رجعنا الى الآية الأولى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ... } [البقرة: 253] لوجدنا أن السياق ليس سياق التفاضل بين الأنبياء وأن الآية الكريمة وردت في سياق القتال فبدأت الآيات بقتال بني اسرائيل لأهل فلسطين في زمن طالوت و داود عليه السلام وانتهت بقتال بني اسرائيل فيما بينهم فالكلام في بني اسرائيل و {تِلْكَ الرُّسُلُ} هم رسل بني اسرائيل يقص الله سبحانه وتعالى قصصهم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولا علاقة لغيرهم من الرسل بالآية الكريمة فكلمة (تلك) اسم اشارة يشار به إلى من وردت اسماؤهم في هذه الآية والآيات التي سبقتها و لا معنى لإدخال غيرهم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ضمن المشار إليهم مع أنه لم يرد لهم ذكر في الآيات الكريمة فالله سبحانه وتعالى ضرب المثل بنبيين من أنبياء بني اسرائيل هما موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

فمعنى الآية الكريمة هو: أن الله سبحانه وتعالى أنعم على بعض المرسلين من وجه وأنعم على غيرهم من وجه آخر ورفع درجات آخرين من وجه ثالث وضرب المثل بنعمة الوحي على كل من موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام وهما الرسولان اللذان اختلف اتباعهما وقاتل بعضهم بعضا وبما أن طرق الوحي المذكورة في القرآن الكريم هي ثلاثة قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } [الشورى: 51] فقد بين بموجبها أنه أنعم على بعضهم بكلامه المباشر فقال: { مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ } مشيرا الى موسى عليه الصلاة والسلام وهو الذي قال تعالى في حقه: {قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: 144] وقال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164] و أنعم على عيسى عليه الصلاة والسلام بالبينات و روح القدس فقال: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} فأيده بجبريل عليه الصلاة و السلام إذ كان سبب و جوده و هو المعني بقوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} [مريم: 19], و كان الواسطة بينه وبين الله عز وجل في كل النعم التي أنعم الله بها عليه وقد من الله سبحانه وتعالى على نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [المائدة: 110] فهذه الآية الكريمة تفسر آية البقرة التي نحن بصددها تفسيرا وضحا لا يبقى معه شك في أن المراد بقوله تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ} هو ذكر فضل الله سبحانه وتعالى عليه بالإحسان اليه في الدنيا عندما أيده بروح القدس فكلم الناس في المهد وكهلا وتعلم الكتاب والحكمة والتوراة و إلى نهاية ما ذكر في الآية وليس المراد أنه جعله خيرا من غيره من الأنبياء كما ذهب إليه أكثر المفسرين فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا أما قوله تعالى: {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} فمعناه رفع درجات آخرين من هؤلاء الرسل من وجه ثالث فجعل داود عليه السلام ملكا على بني اسرائيل وأنعم على سليمان عليه السلام بملك لا ينبغي لأحد من بعده فالله سبحانه وتعالى فضل كل نبي أو رسول على أخر من وجه بنعمة من نعمه سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا من غير أن تتطرق الآية الكريمة الى مسألة التفاضل بين الأنبياء بمعنى أن بعضهم خير من بعض.

أما الآية الثانية التي يستشهد بها جمهور المفسرين في مسالة التفاضل بين الأنبياء وهي قوله تعالى: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} [الإسراء: 55], فلا تختلف عن سابقتها في شيء إذ السياق ليس سياق التفاضل بين الأنبياء, والمراد من {فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ} أي في الإحسان إليهم ابتداء بلا علة بدليل قوله تعالى: {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} فكما أنعم بالقرآن على محمد والتوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم أنعم بالزبور على داود عليه السلام, وهو بمثابة كلام الله عز و جل لموسى و تأييده بالروح القدس لعيسى عليهما الصلاة والسلام في آية البقرة. فمعنى (فضل) في هاتين الآيتين يشبه معنى {فَضَّلْتُكُمْ} في الآية الواردة في حق بني اسرائيل قال تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} [البقرة: 47 و 122], فليس معنى هذه الآية أن بني اسرائيل خير من غيرهم وإنما هو تذكير لهم بزمن آبائهم عندما أنعم عليهم بالهداية عن طريق إرسال الرسل إليهم وانزال الكتب عليهم وجعل فيهم الملك {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا

لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ} [المائدة: 20] فهذه النعم توالت عليهم بعد أن أصابهم الخذلان في مصر و أصبحوا صاغرين يسومونهم جلاوزة فرعون سوء العذاب يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم {وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [البقرة: 49] روى ابن كثير عن أبي العالية في قوله تعالى: {وأني فضلتكم على العالمين} أي بما انعم الله عليهم من الرسل والكتب والملك مقارنة بغيرهم في عالم زمانهم. وروي مثل هذا عن قتادة ومجاهد وإسماعيل بن أبي خالد و الربيع بن أنس ينظر: (ابن كثير 1419ه , 158/1). فتفضيل بني اسرائيل على العالمين هذا قريب من قول القائل فضلت ابني المعاق على الآخرين بقطعة أرض بعد أن وهب لكل واحد من أولاده قسطا من أمواله, فالمراد من قوله: هو أنه أحسن إلى المعاق منهم بقطعة أرض زيادة عن حصص الآخرين لا أنه جعله خيرا منهم.

الاحتمال الثاني: أن المراد بالتفضيل في الآيتين هو أن بعض النبيين خير من بعض. وجزم الجمهور من أصحاب هذا القول بأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء والرسل قاطبة.

هذا الاحتمال وان كان مذهب جمهور علماء المسلمين من الفقهاء و المفسرين و أهل الكلام؛ إلا أنه لا يسلم من مجموعة من الانتقادات التي يمكن أن توجه إليه منها:

1- أن سياق الآيات ليس سياق التفاضل بين الأنبياء و لا دليل فيها على أن المراد منه هو أن بعضهم خير من بعض وقد مر الكلام عن هذا في الاحتمال الأول فلا داعي لإعادته هنا.

2- أن اصحاب القول بهذا الاحتمال لم يتفقوا على رأي واحد في من هم المعنيون:

ا- بقوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ} فذهب فريق من العلماء إلى أن الألف واللام للاستغراق واللفظ يشمل جميع الرسل, وذهب آخرون الى أن المشار إليهم هم الرسل المذكورون في هذه السورة, وذهب فريق ثالث إلى أن المراد هم من بلغ خبرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم. ينظر: (البيضاوي, 1418هـ 153/1) و (الشوكاني1414 هـ 308/1).

ب- بقوله تعالى: {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالبعض هنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم, و آخرون إلى أنه إبراهيم لوصفه بالخليل في القرآن الكريم, وقيل إنه ادريس؛ لأن الله رفعه مكانا عليا, و ذهب بعضهم إلى أن المراد بهم أولو العزم من الرسل. ينظر: (البيضاوي, 1418هـ 153/1) و (ابن عجيبة, 1419هـ 1282) .

3- إنهم اختلفوا في المعنى المراد من ألفاظ وردت في الآية الكريمة منها:

ا- قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا...} نقل ابن كثير عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى نسب التفضيل إلى نفسه في الآية الكريمة فهو شأن إلهي لا مجال فيه لاجتهادات الناس وآرائهم فليس للمؤمنين في مثل هذه الأمور إلا الانقياد والتسليم لما أمر الله سبحانه وتعالى به. ينظر: (ابن كثير1419 هـ 511/1) ومال الى هذا الرأي الشوكاني وسمى تفضيل أحدهم على الآخر من قبل الناس تفضيلا بالجهل؛ لأن أتباع كل نبي من الأنبياء يجهلون بعضا من مميزات وخصوصيات نبيهم فضلا عن غيره من الأنبياء, والتفضيل لا يكون إلا بعد معرفة جميع الأسباب التي يكمل بها التفاضل, والإحاطة التامة بكل مزايا الفاضل والمفضول وهذا غير متاح إلا لمن لا تخفى عليه خافية, أما من ذهب من أئمة التفسير إلى أن المراد من البعض في قوله تعالى: { وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد وصفهم الشوكاني: بأنهم قد وقعوا في خطرين، وارتكبوا نهيين، وهما: تفسير القرآن بالرأي، والدخول في ذرائع التفضيل بين الأنبياء، وإن لم يكن ذلك تفضيلا صريحا فهو ذريعة إليه بلا شك ولا شبهة؛ لأن من جزم بأن هذا البعض المرفوع درجات هو النبي الفلاني انتقل من ذلك إلى التفضيل المنهي عنه، وقد أغنى الله نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم عن ذلك بما لا يحتاج معه إلى غيره من الفضائل والفواضل. (الشوكاني1414 هـ 308/1 و309) ونقل القرطبي عن أحد شيوخه قولا مماثلا فقال: قال شيخنا: فَلَا يُقَالُ: النَّبِيُّ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ وَلَا مِنْ فُلَانٍ وَلَا خَيْرٌ، كَمَا هُوَ ظَاهِرُ النَّهْيِ. (القرطبي 1964م, 262/3).

ب- قوله تعالى: { بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} ذهب ابن عطية وابن عجيبة و ابن جزي و ابن عاشور وغيرهم الى أنه يجوز التفضيل على سبيل الإجمال على شرط عدم تعيين المفضول إذ لا دليل في الآية الكريمة على التفاضل بين آحاد الأنبياء فتفضيل نبي على نبي منهي عنه في آيات أخرى وفي السنة النبوية أيضا أما تفضيل البعض على البعض فلا مانع منه كتفضيل الرسل على الأنبياء و تفضيل أولي العزم على غيرهم من الرسل ينظر: (ابن عطية, 1422هـ 338/1) و (ابن عجيبة, 1419هـ 1282) و (ابن جزي, 1416 هـ 130/1) و (ابن عاشور,1984,م, 7/3).

4- هذا الاحتمال يتعارض مع ظاهر آيات وردت في القرآن الكريم قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا

أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 136] وقال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 84]. وقال أيضا: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [البقرة: 285], وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: 152] فقوله تعالى: {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ} و {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} و {وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ} كفيل بغلق باب التفاضل بين الأنبياء جميعا؛ لأن عدم التفرقة بينهم يجب أن يكون في كل الأمور ومنها المفاضلة. وأجيب عنه بأن المراد هو التفريق بينهم في الإيمان بهم لا في التفاضل بينهم أي لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود و النصارى ينظر: (البغوي, 1990م 172/1) و (القرطبي 1964م 140/2). وهذا الكلام ظاهر الضعف؛ لأن وفق هذا التفسير الجزء الثاني من كل واحدة من هذه الآيات لا يعدو أن يكون أكثر من توكيد لجزئها الأول فمعنى عدم التفرقة في الإيمان سبق في (كلمة آمنا في الآية الأولى والثانية و آمن في الثالثة و آمنوا في الرابعة), بينما الأصل فيه أن يفيد معنى جديدا مضافا إلى المعنى الأول لا أن تكون خمس كلمات في نهاية كل آية من هذه الآيات مجرد توكيد لكلمة واحدة وردت في أول الآية الكريمة, ثم يتكرر هذا أربع مرات في أربع آيات, و ما يؤكد هذا التوجه نهي النبي صلى الله عليه و سلم في التفاضل بين الأنبياء, والسنة كما هو معلوم مبينة لما أشكل علينا في القرآن الكريم, قال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النحل: 44], والنبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة لم يتوقف عند النهي عن التفاضل بين الأنبياء فحسب بل ونهى عن تفضيل شخصه صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء وضرب المثل بكل من ابراهيم موسى ويونس بن متي عليهم الصلاة والسلام. وسيأتي الكلام عن هذه الاحاديث.

5- هذا الاحتمال يتعارض مع الأحاديث الواردة في النهي عن التفاضل بين الأنبياء ومن بين هذه الأحاديث:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ» (البخاري, 1422 هـ , 13/9) و (ابو داود, 2009م, 61/7), وقال صلى الله عليه وسلم: «لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ» (البخاري, 1422هـ 159/4) و (مسلم , 1843/4).

كل هذا الوضوح والبيان في النهي عن التفاضل بين الأنبياء من الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقنع الجمهور بوجوب الكف عن التفاضل بينهم وذلك؛ بسبب وجود أحاديث في ظاهرها إشارات جلية إلى فضل النبي صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء والمرسلين, وذكر لبعض من أحواله ومزاياه صلى الله عليه وسلم سنذكرها عند مقارنتها بأحاديث أخرى وردت في فضل أنبياء آخرين منهم إبراهيم و يوسف وموسى و غيرهم عليهم الصلاة والسلام, لكن قبل الكلام عن تلك الأحاديث لا بد من وقفة مع أحاديث النهي عن التفاضل لنطلع على إشكالات العلماء عليها, وقد لخصها النووي في خمسة أمور هي: أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم, أو قاله تواضعا, أو النهي يكون عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة, أو تنقيص المفضول, أو أنه مختص بالتفضيل في نفس النبوة لا بأحوال وخصائص الأنبياء. ينظر: (النووي, 1392هـ 38/15). وفيما يأتي مناقشة هذه التأويلات بشيء من التفصيل:

1- أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التفاضل بين الأنبياء قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم. أجيب عنه بأنه خبر ولا نسخ في الأخبار

2- أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التفاضل تواضعا مع علمه بأنه أفضل منهم. ويجاب عنه بأمور:

ا- إن مهمة النبي صلى الله عليه وسلم هو البيان والإيضاح وليس له أن يغير الحقائق ويبدل ما أوتي من عند الله سبحانه وتعالى تواضعا.

ب- إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره وعظيم منزلته عند الله سبحانه وتعالى قد تواضع في هذه المسألة فلم نترفع نحن عن مثل هذا التواضع ونصر على فتح باب للفتنة أغلقه النبي صلى الله عليه وسلم ؟

ج- النهي عن التفاضل بين الأنبياء أمر ثابت بالقرآن الكريم والأحاديث الصحيحة, أما أن يكون سببه التواضع فهو أمر مشكوك في صحته. فهل يصح ترك النهي الثابت لأمر مشكوك في صحته؟

3- يختص النهي بالتفضيل المؤدي إلى الفتنة والخصومة بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى. ويجاب عنه بأن التفاضل بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدوام و في كل العصور والأزمان ذريعة إلى الفتنة والخصومة بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى, وربما يكون هذا واحدا من أسباب النهي عن التفاضل بينهم عليهم الصلاة والسلام.

4- يختص النهي بالتفضيل المؤدي إلى التنقيص من المفضول. ويجاب عنه بأن التنقيص هنا لا يعني فقط الحط من قدره و إنزاله عن المرتبة التي هو فيها؛ لأن معنى تفضيل شخص على آخر هو أن ينظر إلى الفاضل على أنه أعلى درجة من المفضول وينظر إلى المفضول على أنه أدنى مرتبة من الفاضل فهو يتضمن النقص للمفضول في الأحوال كلها؛ لأنه يكون دون درجة الفاضل, فمعنى الفضل في اللغة الزيادة وضده النقص؛ ولهذا السبب كره الملأ من قوم نوح عليه الصلاة والسلام الإيمان به قال تعالى: {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: 24] فلو أنهم آمنوا بما أنزل إليهم لما هبطت درجة أحدهم عن المرتبة التي هو فيها و لارتفعت منزلتهم بالإيمان, ولكنهم كرهوا أن تكون منزلة نوح عليه الصلاة و السلام فوق منزلتهم, وللسبب نفسه لم يؤمن سادة قريش بدعوة النبي صلى الله عليه و سلم فتمادوا في غيهم وضلالهم: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} [الزخرف: 31]فجاءهم الرد من الله سبحانه في قوله تعالى: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [الزخرف: 32], فمجرد وجود الأفضل مشعر بالنقص في المفضول, هذا ما اعتاده الناس وتعارفوا عليه.

5- التفضيل لا يكون في نفس النبوة وإنما يتناول الأحوال والخصائص والفضائل الأخرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ويجاب عنه: بأنه لا جديد في هذا القول فهو بالضبط ما نهى عنه النبي صلى الله عليه و سلم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينه أصلا عن التفاضل في النبوات, و إنما نهى المسلمين عن التفاضل بين الأنبياء أي في أحوالهم وخصائصهم, و لا يخفى على أحد من الناس أن التفاضل الذي أشار إليه القرآن الكريم في الآية الكريمة (تلك الرسل...) هو تفاضل خاص بالرسالات السماوية و المعجزات التي تؤيد كونها من عند الله لا بأحوال الأنبياء و خصائصهم الشخصية, فكل نبي أيده الله سبحانه و تعالى بمعجزات تناسب عصره و تتوافق مع زمانه, فلو كان نبينا صلى الله عليه و سلم نبي بني اسرائيل بدلا من موسى لكلمه الله تكليما, و لو كان بدلا من داود لأنزل عليه الزبور, أو بدلا من عيسى لأيده الله عز وجل بروح القدس, أو كان أيا منهم في زمن نبينا بدلا منه لأنزل عليه القرآن الكريم, فالتفاضل لا يطال أحوال الأنبياء و خصائصهم الشخصية وإنما هو وجه الإحسان إليهم بتأييدهم بالمعجزات التي تمكنهم من أداء الرسالة التي كلفوا بتبليغها على أكمل وجه وقد سبق الكلام عن هذا الأمر في الاحتمال الأول بتفصيل أكثر.

بعد الانتهاء من الكلام عن جواز التفاضل بين الأنبياء من عدمه نتحول الى ما ورد في حق نبينا صلى الله عليه وسلم وبعض الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم من آيات و أحاديث تماشيا مع من أصر من العلماء على جواز التفاضل بينهم.

3- مناقشة النصوص الواردة في فضل نبينا صلى الله عليه سلم والأنبياء المذكورين في القرآن الكريم

قبل أن نبدأ بمناقشة النصوص الواردة في فضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لابد لنا من وقفة مع أقسام الفضل.

3-1- أقسام الفضل:

الفضل ينقسم الى قسمين هما:

1- الفضل الذاتي أو ما يسمى (الفضل بالاختصاص) كفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على سائر البشر, وهذا النوع من الفضل لا دخل للعبد فيه فالفاضل فاضل بذاته لخاصية أودعها الله سبحانه وتعالى فيه يختلف بها عن غيره من أقرانه, ولا شك بأننا لا نستطيع أن نحكم على أحوال الأنبياء وما امتازوا بها من خصائص في الآخرة؛ لأن الأنبياء أنفسهم لا يعلمون من أمرها شيئا قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأحقاف: 9], فإذا كان النبي صلى الله عليه و سلم على جلالة قدره لا يدري ما يفعل به فمن يعطي لنفسه بعد ذلك الحق ليخبر عن منزلته صلى الله عليه وسلم في الآخرة؟ وهذه الآية غير منسوخة لأنها خبر والخبر لا يلحقه النسخ ولا شك أن الآية تخبر عن حال النبي صلى الله عليه وسلم وأمته في الآخرة لا في الدنيا بدليل الآية التي تليها وآيات أخرى كثيرة بشرت النبي صلى الله عليه وسلم بالنصر والظهور على الأعداء منها قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: 32، 33] وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (20) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: 20، 21], فما خفي عن النبي صلى الله عليه و سلم هو منزلته في الآخرة وليس ما يؤول إليه أمره وأمر أمته في الدنيا هذا فيما يتعلق بالفضل الذاتي

في الآخرة. أما في الدنيا فإن كان هنالك نبي اختص بأحوال لم يختص بها غيره فهو آدم عليه الصلاة والسلام؛ لأن الله سبحانه وتعالى خلقه بيديه وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (72) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (73) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (74) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص: 71 - 75] , و قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } [البقرة: 31، 32], فما من فضيلة في الدنيا ترقى الى مستوى هذه الفضائل الثلاث و ما من نبي من الأنبياء حسب ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية حظي بواحدة منهن فضلا عن أن يحظى بها جميعا, ويليه في هذا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام فهو أشبه الأنبياء به خلقا وتسخيرا للملائكة؛ لأنه خلقه من غير اتصال جنسي فهو لم يمر في مراحل خلقه بما يتشارك فيه الإنسان مع الحيوان وانما هو روح من الله و كلمته ألقاها إلى مريم قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا} [النساء: 171], ولم يمكن الشيطان منه عند ولادته وردعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَ اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [آل عمران: 36]. (البخاري, 1422 هـ 34/6) و (مسلم, 1838/4). وهذه ميزة اختص بها عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام دون غيره من الأنبياء, ثم أيده بروح القدس وعلمه الكتاب والحكمة والتوراة و الإنجيل, لذا قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } [آل عمران: 59، 60], وربما كان هنالك أنبياء آخرون ولدوا بهذه الصفة ولكن لم تصلنا أخبارهم ولم نطلع على قصصهم, فلو كان مراد العلماء بالتفاضل: الفضل الذاتي في الدنيا, و ميزانهم: الأدلة المتوفرة بين أيدينا لوجب تقديم آدم عليه الصلاة و السلام على غيره من الأنبياء؛ لأن ما حاز عليه من امتيازات بالاختصاص لم يحصل عليها غيره من الأنبياء وفق ما أخبر عنهم القرآن الكريم, ولكن يجب أن لا ننسى بأن القرآن الكريم لم يحص كل امتيازات الأنبياء المذكورين فيه فضلا عمن لم يرد لهم ذكر لا في القرآن و لا في السنة.

2- الفضل بالمجازاة: وهو الفضل الذي يناله النبي بما بذل من جهد في سبيل الدعوة الى الله وقدم من عمل لا يريد به إلا وجهه سبحانه وتعالى ولو أمعنا النظر في سير الأنبياء لما وجدنا نبيا كنوح عليه الصلاة والسلام تحمل عناء الدعوة إلى الله تعالى على مدى سنين طوال - فاقت أعمار غيره من الأنبياء فضلا عن فترة بعثة كل واحد منهم - يدعو قومه إلى الله سرا وجهارا ليلا ونهارا دون كلل أو ملل فلا يلقى إلا آذانا صما وقلوبا غلفا لا تسمع حقا ولا تهتدي إلى سبيل{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [العنكبوت: 14], فما كان جواب قومه خلال كل هذه السنوات التي كان يقدم لهم فيها النصح ويرجو لهم النجاة إلا الاستهزاء به و السخرية منه والتهرب من دعوته حتى أنهم كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم عند سماعه ويستغشون ثيابهم عند لقائه {قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا } [نوح: 5 - 9] فكانت وطأة عدم استجابتهم للحق أشد عليه من كل الاذى الذي تلقاها منهم فلم يبق أمامه سوى أن يبث شكواه إلى الله سبحانه وتعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا} [نوح: 21 - 23], ولكنه مع ذلك لم ييأس من إيمانهم و لم يقنت من رحمة الله بهم حتى أنه هم بالشفاعة لهم قبل نزول غضب الله سبحانه وتعالى عليهم فنهاه سبحانه و تعالى عن ذلك و أخبره بأنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ} [هود: 36، 37]. عندها أيقن بالعذاب و أدرك أن لا مفر من العقاب فاستسلم للأمر الواقع, وأعلن جاهزيته لقبول قضاء الله سبحانه وتعالى فيهم رافعا أكف الضراعة إليه: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28)} [نوح: 26 - 28], من هذا يتبين لنا أن لا أساس لما يشاع عنه بأنه

ضجر من إصرار قومه على الكفر فدعا عليهم, فدعاؤه على أهل الشرك من قومه لم يكن إلا بعد أن أوحى الله سبحانه و تعالى إليه { أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ } وأنهم هالكون لا محالة و أنت يا نوح من الآن فصاعدا لا تملك لهم لا ضرا و لا نفعا؛ لأنه كان مرسلا إليهم لينذرهم قبل أن يأتيهم العذاب لا بعد صدور الأمر الإلهي بذلك: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [نوح: 1] أما بعد تعلق الإرادة الإلهية بهلاكهم فإنه لا يملك لهم من الأمر شيئا إن الأمر إلا لله الواحد القهار.

هذا باختصار أهم ما امتاز به آدم و نوح عليهما الصلاة والسلام عن غيرهما من الأنبياء عليهم السلام وفق ما ورد في القرآن الكريم عن سيرهم وفضائلهم, ولكن مع ذلك لا نجد لأحدهما ذكرا في كتب التفسير على أنه الأفضل من بين الأنبياء جميعا, فجهود القائلين بجواز تفضيل أحد الأنبياء على سائرهم كلها منصبة على إظهار فضل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء رغم أن القرآن الكريم لم يتطرق كثيرا إلى ذكر فضائله صلى الله عليه وسلم كما تطرق إلى فضائل أنبياء آخرين مثل إدريس الذي رفعه الله مكانا عليا {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} [مريم: 56، 57], و إبراهيم الذي اتخذه الله خليلا { وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء: 125], و وصفه بقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هود: 75] , و قال في حقه أيضا: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123) } [النحل: 120 - 124] فالله سبحانه وتعالى أوحى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون تبعا لملة أبيه إبراهيم في هذه الآية و في آيات أخرى منها قوله تعالى: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام: 161], فكان نبينا صلى الله عليه وسلم تابعا وإبراهيم عليه الصلاة والسلام متبوعا بل و أمره أن يقتدي بمن سبقه من الأنبياء غير إبراهيم عليه الصلاة و السلام فطلب منه أن يصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فقال: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ } [الأحقاف: 35] وقال أيضا بعد ذكر اسماء مجموعة من الأنبياء في مقدمتهم إبراهيم ونوح عليهما الصلاة والسلام: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [الأنعام: 90] و خص موسى عليه الصلاة والسلام بوصف عظيم لم يصف بها غيره من الأنبياء عندما قال له: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} [طه: 41] بينما لا نجد في القرآن الكريم مثل هذه الأوصاف في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وخاصة التي تتضمن خصوصية مميزة كهذه الآية التي وردت في حق موسى عليه الصلاة والسلام والآية التي اثبتت الخلة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام, فأشهر ما ورد في فضله صلى الله عليه وسلم آيتان أصبحتا موضع تركيز العلماء في إظهار تميزه صلى الله عليه وسلم عن غيره من الأنبياء هما قوله تعالى: { وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم: 4], وقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (78) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا} [الإسراء: 78، 79] و هاتان الآيتان هما في مقام العموم بالنسبة إلى الأنبياء جميعا؛ لأن كل نبي هو على خلق عظيم هذا إن كان المراد من (الخلق) المعنى المتعارف عليه عند الناس, وإن كان المراد بالخلق (الدين) كما فسره ابن عباس ينظر: (الطبري, 2000م, 529/23) فيكون المعنى و إنك لعلى دين عظيم فالأمر لا يختلف؛ لأن جميع الأنبياء كانوا على نفس الدين الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وإن اختلفت شرائعهم, أما فيما يتعلق بالآية الثانية فإن لكل نبي من الأنبياء يوم القيامة مقاما محمودا بناء على ما قدم من عمل وإن كان شيئا آخر غير قرآن الفجر وتهجد الليل إذ لا يمكن الجزم بأن المراد بالمقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي اختص بها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن العلماء لم يتفقوا على رأي واحد في المراد بالمقام المحمود ينظر: (الطبري, 2000م, 17/ 526), وهكذا لو تفحصنا القرآن الكريم من سورة الفاتحة إلى سورة الناس فإننا لن نخرج إلا بنتيجة واحدة هي عدم استرساله في ذكر فضائل النبي صلى الله عليه وسلم التي تميزه عن الأنبياء الآخرين, و اصراره في عشرات الآيات على بشريته وعبوديته لله سبحانه وتعالى و إنه لا يتعدى كونه رسولا يوحى إليه ثم جاءت السنة النبوية تؤكد هذا التوجه و مما يروى في هذا المجال عن النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، لَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ " قال شعيب الأرنؤوت: اسناده صحيح على شرط مسلم فرجاله رجال الشيخين سوى حماد بن سلمة و هو من رجال مسلم. (الإمام أحمد, 2001م, 23/20) وما روي عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ فَجَاءَ قَوْمٌ مِنَ الْكُوفِيِّينَ ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ أَحِبُّونَا حُبَّ الْإِسْلَامِ ، سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، لَا تَرْفَعُونِي فَوْقَ قَدْرِي ، فَإِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي نَبِيًّا " فَذَكَرْتُهُ

لِسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ فَقَالَ: " وَبَعْدَ مَا اتَّخَذَهُ نَبِيًّا " قال الحاكم" هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ " (الحاكم, 1997م, 213/3) و قال صلى الله عليه و سلم: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ» (البخاري, 1422هـ,167/4) و يبدو من هذه الأحاديث أن القرآن الكريم إنما تجنب ذكر فضائل النبي صلى الله علي وسلم مخافة أن يستدرج الشيطان المسلمين إلى الغلو فيه كما استدرج أقوام أنبياء آخرين من قبلهم و للسبب نفسه منع النبي صلى الله عليه و سلم التفاضل بين الأنبياء, و منع أن يفضل هو شخصيا على غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أكثر من حديث

3-2- **نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيل شخصه على غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام**

وردت في كتب الحديث مجموعة من الأحاديث الصحيحة ينهى فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن تفضيل شخصه على غيره من الأنبياء وفيما يأتي بعض منها:

1- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ المُسْلِمُ: والذي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ المُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ» (البخاري, 1422 هـ 120/3) و (مسلم, 1844/4). من الاعتراضات الموجهة الى هذا الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التفاضل في هذا الحديث خشية وقوع الفتنة بين المسلمين واليهود. ويجاب عنه بأن هذه الخشية حاضرة في كل عصر و زمان و لا يستبعد أن يكون أحد أسباب النهي عن التفاضل بين الأنبياء على وجه العموم, و لكننا نجد في الحديث تعليلا لعدم التفضيل يوحي بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن متأكدا من أنه أفضل من موسى عليه الصلاة والسلام وهذا يعني أنه كان لا يعلم منزلة كل واحد منهما على وجه الدقة يوم القيامة و إلا لما علل الأمر بقوله: «فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ» وهذا يوافق ما مر علينا في قوله تعالى: {وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ } [الأحقاف: 9]

2- عن ابنِ عبَّاسٍ، عن النبيِّ-صلى الله عليه وسلم- قال: "ما ينبغي لعبدٍ أن يقول: إني خيرٌ من يونسَ بنِ متَّى" (البخاري,1422 هـ ,4/ 159) و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قَالَ: " مَنْ قَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ" (البخاري,1422 هـ ,50/6) وفي رواية عبد الله بن جعفر قال: كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "ما يَنبغي لنبي أن يقولَ: إني خيرٌ من يونسَ بن مَتَّى"(أبو داود, 2009م, 61/7و62) وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ " (مسلم , 1843/4). ذهب ابن بطال إلى أنه صلى الله عليه و سلم قاله من باب التواضع أو في أمر خاص كأن يكون عمله أفضل من عملي أو محنته أشد من محنتي ينظر: (ابن بطال, 2003م, 535/6), و في الكثير من الحالات يقف الناس عند رواية ابن عباس رضي الله عنهما ويقولون أن الضمير يعود إلى القائل ينظر: (الطيبي, 1997م, 3611/11) وفيه تجاهل للروايات الأخرى للحديث ففي رواية أبي داود (ما ينبغي لنبي) بدلا من (عبد) و في رواية مسلم (و لا أقول أن احدا) فنسب النبي صلى الله عليه وسلم القول إلى نفسه وذكر بدلا من (عبد) (أحدا) فهو يشمل النبي صلى الله عليه وسلم وغيره, وهذا يعني أن المراد بالنهي هنا هو النهي عن التفاضل بين الأنبياء وليس الأمر بين المتكلم - أيا كان ذلك المتكلم - ونبي الله يونس عليه الصلاة والسلام, ويبدو أن الحديث ورد دفعا لأي توهم قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس بسبب ما و رد في حق يونس عليه الصلاة و السلام في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ } [القلم: 48] هذا من وجه, و من وجه آخر هو تأكيد على وجوب الالتزام بمبدأ عدم التفاضل بين الأنبياء ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان قد منع من أن يفضله أحد على يونس عليه السلام رغم ما ورد في حقه من عتاب في قوله تعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ} [القلم: 48، 49] فمن الأولى أن لا يفضل على أحد غير يونس من الأنبياء الذين استرسل القرآن الكريم في مدحهم والثناء عليهم كنوح وابراهيم وموسى عليهم الصلاة و السلام.

3- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «أَتْقَاهُمْ» فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ، إِذَا فَقُهُوا». (البخاري, 1422هـ 140/4) و (مسلم, 1846/4).

4- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «كُنْتُ فِي حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ نَتَذَاكَرُ فَضَائِلَ الْأَنْبِيَاءِ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ، فَذَكَرْنَا نُوحًا وَطُولَ عِبَادَتِهِ رَبَّهُ، وَذَكَرْنَا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، وَذَكَرْنَا مُوسَى مُكَلِّمَ اللَّهِ، وَذَكَرْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ، وَذَكَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: " مَا تَذْكُرُونَ بَيْنَكُمْ؟ ". قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْنَا فَضَائِلَ الْأَنْبِيَاءِ أَيُّهُمْ أَفْضَلُ، فَذَكَرْنَا نُوحًا وَطُولَ عِبَادَتِهِ رَبَّهُ، وَذَكَرْنَا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، وَذَكَرْنَا مُوسَى مُكَلِّمَ اللَّهِ، وَذَكَرْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ، وَذَكَرْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: " فَمَنْ فَضَّلْتُمْ؟ ". فَقُلْنَا: فَضَّلْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَعَثَكَ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَغَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَأَنْتَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ خَيْرًا مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ". قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: " أَلَمْ تَسْمَعُوا كَيْفَ نَعَتَهُ فِي الْقُرْآنِ {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} [مريم: 12] إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: {حَيًّا} [مريم: 15] {مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 39] لَمْ يَعْمَلْ سَيِّئَةً وَلَمْ يَهِمَّ بِهَا» ". قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني وفيه علي بن زيد بن جدعان ضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات. (الهيثمي,1994, 209/8)

5- وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: " «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا، مَا هَمَّ بِخَطِيئَةٍ ". أَحْسَبُهُ قَالَ: " وَلَا عَمِلَهَا» ". رواه البزار و رجاله ثقات. (الهيثمي, 1994م, 209/8).

6- عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ». (مسلم, 1839/4) المتبادر الى الذهن من هذا الحديث هو أفضلية ابراهيم عليه الصلاة والسلام يقال فلان خير من فلان بمعنى أفضل منه و خير البرية يعني خير الخلق. و قد تصدى العلماء للإجابة عن هذا الحديث بجملة من التأويلات منها:

1. يحتمل ان يكون هذا من جهة التواضع ونسب هذا القول الى الإمام أحمد.
2. كره النبي صلى الله عليه و سلم المطاولة على آبائه من الأنبياء وابراهيم عليه الصلاة والسلام هو واحد منهم.
3. يحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه و سلم فهم من ثنائه غير هذا المعنى فقاله بعداً عن التطاول والتعاظم على الانبياء الذين سبقوه, ثم أخبر في غير هذا الموضع أنه سيد ولد آدم ليبين ما أمره الله ببيانه.
4. قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ذاك إبراهيم) قبل أن يوحى إليه بأنه خير منه.
5. ربما كان لإبراهيم عليه الصلاة و السلام من المميزات ما يتميز بها على سائر الأنبياء والمرسلين فهو لم يكن خير البرية على الاطلاق بل في معنى اختص به, ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم بمجموع فضائله أفضل منه.
6. ربما قاله النبي صلى الله عليه و سلم من منطلق ما اعتاد عليه الناس في قولهم: فلان أصلح أهل بلده, أو هو خير قومه إذا دل ظاهره على الصلاح والتقوى و هذا ما يدل عليه ظاهر حال إبراهيم عليه الصلاة و السلام.
7. ربما أطلق النبي صلى الله عليه وسلم العبارة الموهمة للعموم لأنه أبلغ في التواضع, و أراد به (خير البرية) الموجودين في عصره.
8. معنى (خير البرية) هنا يشمل من خلق دون من لم يخلق بعد فيكون نبينا صلى الله عليه وسلم مستثنى منهم.
9. ذهب بعض الأصوليين الى أن (المتكلم لا يدخل في أمره وخبره) فالنبي صلى الله عليه و سلم لا يدخل ضمنهم. ينظر: (القاضي عياض, 1998م, 340/7), و (النووي, 1392 هـ 15/ 121), و (الهروي,2002م, 3071/7).

وحري بالقول أن بعض الإجابات تبدو غير مقنعة وتفوح منها رائحة التكلف والعاطفة الـتي يجب على الباحث أن يتجرد منها في مجال البحث العلمي؛ لأن ضالة المؤمن هي الوقوف على الحقيقة وليس التشبث برأي المذهب أو الوقوف مع الجمهور وحشد الأدلة لإثبات وجهة نظر معينة و تقديمها على غيرها من الآراء, فما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم كما يبدو لا يتجاوز الرد على كلام من خاطبه بقوله: (يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ) فهو بمثابة زجر للقائل كي لا يعود إلى مثل هذا القول؛ ولكن بأسلوب فيه لطف ورقة من منطلق النهي عن التفاضل بين الأنبياء لا أكثر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم وصف أكثر من نبي بمثل هذا الوصف منهم يوسف, ويحيى, ويونس عليهم الصلاة والسلام, وهذا أشبه ما يكون بالأسئلة التي وجهت إلى النبي صلى الله عليه و سلم عن أفضل الأعمال, فتعددت إجاباته عنها بأمور كثيرة منها الصلاة في وقتها, والجهاد في سبيل الله, والحج, والعمرة و غيرها, واخترنا من بينها حديثين متفق على صحتهما للاستدلال بهما في هذا المجال, أولهما: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ، وَيَدِهِ», (البخاري, 1422هـ 11/1) و (مسلم, 65/1). و الحديث الثاني: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الإِسْلاَمِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلاَمَ

عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ», (البخاري, 1422هـ, 12/1) و (مسلم, 65/1). فالسؤال في الحديثين واحد وجاء جواب النبي صلى الله عليه و سلم مختلفا في الحديث الثاني عن الحديث الاول, ففي الحديث الأول كان الجواب هو كف الأذى عن الآخرين وفي الثاني المبادرة بالإحسان إليهم, وللعلماء في تفسيرهما والجمع بينهما مذاهب, منها: أن النبي صلى الله عليه و سلم لم يقصد بأي واحدة منها تفضيلها على الأشياء كلها بل اعتبرها من خير الأمور في الإسلام لا خيرها مطلقا, أو أن تفضيلها قد يكون من وجه دون وجه, أو أنها تختلف من شخص لآخر, أو من وقت لآخر, ينظر: (ابن رجب الحنبلي, 1996م, 43/1). وهذا بالضبط ما أراده النبي صلى الله عليه و سلم بقوله: (ذاك ابراهيم) وكيف يدعي أن ابراهيم خير البرية على الحقيقة و هو صلى الله عليه و سلم من نهى عن التفاضل بين الأنبياء, ثم أنه لما سئل في موقف آخر عن أكرم الناس لم يقل أنه إبراهيم وإنما قال: يوسف عليه السلام, وقال في موقف ثالث لما فضله الصحابة على غيره من الأنبياء قال: لا ينبغي أن يكون أحد خيرا من يحيى بن زكريا, وقال في حق يونس لا ينبغي لعبد وفي رواية لنبي أن يقول إني خير من يونس بن متى, فاشتراك جميع هؤلاء الأنبياء في هذه الصفة لا يعني أن أحدهم خير من الآخرين, فهذه الأحاديث هي أشبه ما تكون بقول القائل عن أكثر من شاعر أو خطيب: فلان أفضل الشعراء وفلان أفضل الخطباء إعجابا بشعرهم وخطبهم, فيطلق القائل العبارة تعبيرا عن شعوره تجاههم تكريما لهم لا أكثر, و لو أنه أراد (بأفضل) معناه الحقيقي لوجب حينها أن لا يصف بهذا الوصف إلا شاعرا واحدا وخطيبا واحدا لا غير, فكذلك الحال في الأحاديث التي مرت علينا فخير الأنبياء كان من المفروض أن يكون نبيا واحدا وليس كل من وصفهم النبي صلى الله عليه و سلم بذلك.

بعد الانتهاء من الكلام عن الأحاديث الواردة في حق بعض الأنبياء ننتقل إلى الكلام عن الأحاديث الواردة في فضل نبينا محمد صلى الله عليه و سلم, وهي كثيرة لا يمكن إن نحصيها في بحث صغير كهذا لذا سنختار منها ثلاثة أحاديث للمناقشة هي الأشهر من بينها, وعليها مدار تفضيله صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء.

3-3- مناقشة بعض الأحاديث الواردة في فضل نبينا صلى الله عليه وسلم

تم اختيار هذه الأحاديث الثلاثة من بين جميع ما ورد في فضله صلى الله عليه وسلم لصحة أسانيدها وشهرتها وكثرة استدلال العلماء بها في مسألة تفضيله صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهي:

1- عن أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ» (مسلم, 1782/4).

2- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: " أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ البَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ، أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو البَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ، مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟

فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا، لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ - أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى - " (البخاري, 1422هـ 84/6) و (مسلم, 184/1).

3- عن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً " (البخاري, 1422هـ 74/1) و(مسلم, 370/1).

لو دققنا النظر في هذه الأحاديث لوجدنا أن الحديث الأول والثاني موضوعهما هو الفضل في الآخرة, و الحديث الثالث موضوعه باستثناء الشفاعة هو الفضل في الدنيا, وسبق الكلام عن فضائل الأنبياء في الدنيا بصورة عامة فذكرنا أن الله سبحانه وتعالى من على كل نبي بمجموعة من النعم تفضلا عليهم من عنده عز وجل, وخصهم بأمور توافق زمن كل واحد منهم وحاجات أقوامهم كجزء من مستلزمات الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى, فلا علاقة لها بمسألة التفاضل بين الأنبياء بمعنى أن أحدهم خير من الآخرين لذا لن نعود إلى تكراره مرة أخرى.

أما الحديث الأول والثاني فموضوعهما واحد والتركيز فيهما على أمرين أولهما: كونه صلى الله عليه وسلم سيد الناس يوم القيامة, وثانيهما مسألة الشفاعة, والغريب في الأمر هو أنني لم أقف على تأويل للأحاديث التي وردت في فضله صلى الله عليه وسلم على غرار التأويلات التي وردت في فضل أنبياء أخرين كالتي مرت علينا مع أنها تحتمل التأويل, ومن بين تلك الاحتمالات:

1- كلمة سيد الواردة في الحديث الأول: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وفي الحديث الثاني «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ» يحتمل أن لا تعني الأفضلية, فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل أنا أفضل الناس أو خير الناس يوم القيامة, وهنالك فرق كبير بين القولين إذ لا تلازم بين السيادة والفضل فالسيد قد يكون أفضل قومه وقد لا يكون كذلك؛ لأن معنى السيادة هو: (الْمَجْدُ وَالشَّرَفُ فَهُوَ سَيِّدٌ وَالْأُنْثى سَيِّدَةٌ), (أبو العباس الحموي, 294/1) و قد فرق ابن حزم بين المعنيين في مسألة التفاضل بين فاطمة وعائشة رضي الله عنهما, فذكر أن النبي صلى الله عليه و سلم وصف فاطمة رضي الله عنها بسيدة نساء المؤمنين, و في حديث عائشة رضي الله عنها نص على الفضل, و استشهد بقول ابن عمر رضي الله عنه بعد أن ذكر أنه حجة في اللغة, فقال: قال ابن عمر: (كَانَ أَبُو بكر خير وَأفضل من مُعَاوِيَة وَكَانَ مُعَاوِيَة أسود من أبي بكر فَفرق ابْن عمر كَمَا ترى بَين السّيادة وَبَين الْفضل وَالْخَيْر) (ابن حزم, 103/4), ونقل ابن منظور قولا مماثلا عن ابن عمر رضي الله عنه, و هو قولهَ: (مَا رأَيت بَعْدَ رسول الله، صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَسْوَدَ مِنْ مُعَاوِيَةَ؛ قِيلَ: وَلَا عُمَر؟ قَالَ: كَانَ عُمَرُ خَيْرًا مِنْهُ، وَكَانَ هُوَ أَسودَ مِنْ عُمَرَ؛ قِيلَ: أَراد أَسخى وأَعطى لِلْمَالِ، وَقِيلَ: أَحلم مِنْهُ) ابن منظور,1414ه, 229/3) و(أبو بكر الخلال,1989م, 442/2), ولو نظرنا إلى تاريخ الأنبياء لوجدنا أن الغالب فيهم أنهم كانوا من الرعية و عامة الناس, وقلة منهم كانوا سادة وكبراء لأقوامهم, ورب قائل يقول: سادة القوم ربما غصبوا الناس حقوقهم وفرضوا أنفسهم عليهم بالقوة فأجبروهم على قبول الأمر الواقع و لو كان التعيين من قبل الله سبحانه وتعالى لأختلف الأمر؛ لأن الله عز و جل لا يعين إلا أفضل الناس سيدا عليهم, ويجاب عن هذا بأن الله سبحانه تعالى عين طالوت ملكا على بني إسرائيل وكان فيهم نبي لهم, قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة: 247] فبعث الله عز وجل طالوت سيدا عليهم وفيهم نبي والنبي دون شك خير من طالوت وغيره من سادة بني اسرائيل, وهذ يعني عدم و جود تلازم بين السيادة و الفضل.

2- كلمتا: (ولد آدم) في الحديث الأول و (الناس) في الحديث الثاني ربما لا يراد بهم العموم؛ لأن العام لا يشمل جميع أفراده في اللغة, فيحتمل أن يكون المراد بهما أمة نبينا محمد صلى الله عليه و سلم ومثل هذا كثير في القرآن الكريم, مثل قوله تعالى: {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا

وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ} [آل عمران: 39] فالمراد بالملائكة هو جبريل عليه الصلاة و السلام, ينظر:[الطبري, 2000, 363/6] وقوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} [آل عمران: 173] {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ} قيل كان شخصا واحدا, وقيل هم نفر من بني عبد القيس, أما {إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ} المراد بهم أبو سفيان ومن معه من قريش يوم احد ينظر: (الطبري, 2000م, 7/ 409),فاللفظ قد يكون عاما ويراد به الخصوص فيحتمل أن يكون قد أراد من (ولد آدم و (من الناس) في الحديثين أمته صلى الله عليه وسلم وليس جميع الناس, أما الزيادات الواردة على رواية الشيخين كما عند الترمذي, و أحمد, و ابن ماجة, وأبي يعلى وغيرهم التي توهم أن المراد بها جميع الناس, مثل: (و ما من نبي يومئذ آدم و من سواه إلا تحت لوائي) و (ما من الناس إلا و هو تحت لوائي) فهي لا ترتقي الى مستوى الاستدلال بها في أمر مهم كهذا ولا تصمد امام الأدلة التي تعارضها لضعفها, وقد تتبع رواياتها كل من الدكتور ابراهيم الشناوي في اعلام النبيه بتخريج أحاديث المنهاج وشرحه وحواشيه, و أبو حذيفة الكويتي في أنيس الساري في تخريج و تحقيق الأحاديث التي ذكرها ابن حجر العسقلاني في فتح الباري و بينا مواطن الضعف فيها. ينظر:[أبو حذيفة, 2005, 1040/2 و 32229].

3- في الحديث الذي تفرد به مسلم إشارة جلية إلى أن نبينا صلى الله عليه و سلم ليس الشفيع الوحيد, فهنالك أنبياء آخرون يشفعون لأممهم, وهذا ما يدل عليه قوله صلى الله عليه و سلم « وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ», فكل ما يدل عليه الحديث هو أن النبي صلى الله عليه و سلم أولهم شفاعة لا أنه الشفيع الوحيد.

4- في الحديث الثاني الذي اتفق عليه الشيخان اقتصر الكلام فيه على شفاعة النبي صلى الله عليه و سلم لأمته دون غيرهم, «ثمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ» فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم سيدا على جميعهم كما هو سيد على أمته لشفع للجميع كما يشفع لأمته, إذ لا يليق بسيد الناس أن يشفع لفئة دون فئة, وهو مقام يترفع عنه النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا فكيف لا يترفع عنه في الآخرة و هو يرفع رأسه من السجود بين يدي رب العالمين.

5- جمع النبي صلى الله عليه و سلم جملة ما امتاز به عن غيره من الأنبياء في الدنيا والآخرة في الحديث الثالث الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه" أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي " وفي رواية (ستا), وليس من بينها أنه سيد الناس جميعا آدم فمن دونه يوم القيامة, فلو كان الأمر كذلك و هو يعلم به لأخبر الناس به ضمن ما امتاز به عن بقية الأنبياء في هذا الحديث؛ لأنه أكبر بكثير من أن ينصر بالرعب مسيرة شهر, بل وأكبر من كل ما ورد في الحديث, أما إن ادعى أحد بأن الشفاعة المذكورة في الحديث نفسه هي السيادة المشار إليها في غيره؛ فيجاب عنه بأمرين, الأول: أن النبي صلى الله عليه و سلم فرق بينهما في حديث أبي هريرة الذي تفرد به مسلم, والثاني: أن شفاعته صلى الله عليه و سلم كانت لأمته كما في الحديث المتفق عليه فهو حينها يكون سيدها دون غيرها من الأمم.

يضاف إلى كل هذا ما تم التأكيد عليه في القرآن الكريم بأن كل نبي مسؤول عن أمته, وهو إمامهم, ويحضر معهم الحساب ليكون شاهدا عليهم, قال تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا } [الإسراء: 71], وقد اختلفت آراء العلماء في المراد بالإمام هنا بين صحيفة أعمالهم, والكتاب الذي أنزل اليهم في الدنيا, و نبيهم الذي أرسل اليهم, و رجح الطبري أن يكون المراد منه نبيهم؛ لأن العرب في الغالب يستعملون لفظ الإمام فيما يُؤتم و يقتدى به وتوجيه معاني القرآن الى الاشهر في اللغة أولى ما لم تثبت حجة بخلافه, ينظر: (الطبري, 2000, 17/ 503) و الحجة هنا للطبري لا ضده؛ لأن الأنبياء يحضرون مع أقوامهم الحساب ولا يقضى بين أفراد أمة إلا بوجود رسولهم قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } [يونس: 47], ورسلهم مسؤولون عنهم, قال تعالى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ } [الأعراف: 6], و من نماذج هذا النوع من السؤال ما ورد في حق عيسى عليه الصلاة و السلام قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } [المائدة: 116], فكل نبي من الأنبياء يوم القيامة إمام لأمته و مسؤول عنها وشاهد عليها بنص القرآن الكريم: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: 41] {وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } [القصص: 75،] {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [النحل: 84] {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ }

[النحل: 89] فاسم الإشارة (هَؤُلَاءِ) في {وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ} المراد به أمته صلى الله عليه وسلم, ومسؤوليته يوم القيامة وفق الأدلة الموجودة بين أيدينا لا تتجاوز حدود ما كلف به في الدنيا وهو تبليغ الرسالة السماوية إلى أمته على أكمل وجه, وهذا ما يستفاد من قوله صلى الله عليه و سلم في خطبة الوداع «أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ - ثَلاَثًا -» (البخاري, 1422هـ 176/5).

4- الخاتمة

أهم ما توصل اليه البحث من نتائج:

1- المناقشات التي دارت في البحث عن فضل نبينا صلى الله عليه و سلم لا تعني أبدا أنه ليس أفضل الأنبياء, فكل ما تم التأكيد عليه هو النهي عن التفاضل.

2- الأدلة التي بين أيدينا (من القرآن والسنة الصحيحة) لا تسعفنا للحكم بدقة على مراتب الأنبياء ومنازلهم عند الله سبحانه وتعالى.

3- جميع الروايات الواردة عن عدد الأنبياء والمرسلين روايات ضعيفة لا يمكن الاعتماد عليها.

4- النهي عن التفاضل بين الأنبياء ثابت بالقرآن والسنة و الالتزام به واجب شرعا.

5- الأحاديث الواردة في حق إبراهيم وموسى ويوسف ويحيى عليهم الصلاة والسلام لا تعني أن أيا منهم أفضل الأنبياء دون غيره؛ فالنبي أخبر عنهم بهذه الصفة إعجابا بهم وتكريما لهم.

6- هنالك فرق لغوي واضح بين لفظي (سيد) و (أفضل أي خير) فلا يشترط في سيد الناس أن يكون أفضل الناس.

7- كل نبي يوم القيامة إمام لأمته, و مسؤول عنها, و شاهد عليها, و لذلك كان النبي صلى الله عليه و سلم يرجو أن يكون أكثرهم تبعا.

المصادر و المراجع

1. ابن بطال, ع.خ., 2003م .شرح صحيح البخاري لإبن بطال, تحقيق: أبو تميم ياسر بن ابراهيم .الريض: مكتبة الرشد.
2. ابن جزي, م.ا., 1416 ه .التسهيل لعلوم التنزيل, تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي .بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.
3. ابن حبان, م.ح., 1988م .الاحسان في تقريب صحيح ابن حبان تحقيق شعيب الارنؤوت .بيروت: مؤسسة الرسالة.
4. ابن حزم, ع.ا .الفصل في الملل و الأهواء و النحل .القاهرة: مكتبة الخانجي.
5. إبن رجب الحنبلي, ع.ا., 1996م .فتح الباري شرح صحيح البخاري, تحقيق: مجموعة من المحققين .المدينة المنورة: مكتبة الغرباء الأثرية.
6. ابن عاشور, م.م., 1984م .التحرير والتنوير .تونس: الدار التونسية للنشر.
7. ابن عجيبة, ا.م., 1419 .البحر المديد في تفسير القرآن المجيد, تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان .القاهرة: الدكتور حسن عباس زكي.
8. ابن عطية, ع.غ., 1422هـ .المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. ط:1 .بيروت: دار الكتب العلمية.
9. ابن فارس, ا.ه., 1979م .معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام محمد هارون .بيروت: دار الفكر.
10. ابن كثير, ا.ع., 1419 ه .تفسير القرآن العظيم. تحقيق: محمد حسين شمس الدين .بيروت: دار الكتب العلمية.
11. ابن منظور, م.م., 1414ه .لسان العرب .بيروت: دار صادر.
12. أبو العباس الحموي, ا.م .المصباح المنير في غريب الشرح الكبير .بيروت: المكتبة العلمية.
13. أبو بكر الخلال, ا.م., 1989م .السنة, تحقيق: د عطية الزهراني .الرياض: دار الراية.
14. أبو حذيفة الكويتي, ن.م, 2005م, أنيس الساري في تخريج وتحقيق الأحاديث التي ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري, بيروت: مؤسسة السماحة, مؤسسة الريان.
15. ابو داود السجستاني, ا., 2009 .سنن أبي داود السجستاني, تحقيق شعيب الأرنؤوت .دار الرسالة العلمية.
16. الإمام أحمد, ا م, 2001 .مسند الإمام أحمد بن حنبل, تحقيق: شعيب الأرنؤوت .بيروت: مؤسسة الرسالة.
17. البخاري, م.ا., 1422هـ .الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. ط:1 .دار طوق النجاة.
18. البغوي, ح.م., 1990م .معالم التنزيل في تفسير القرآن تحقيق عبد الرزاق المهدي .بيروت: دار احياء التراث العربي.
19. البيضاوي , ع.ع., 1418هـ .أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط:1 .بيروت: دار إحياء التراث العربي.
20. الحاكم, م.ع., 1997م .المستدرك على الصحيحين تحقيق: أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي .القاهرة: دار الحرمين.
21. الشوكاني, م.ع., 1414 .فتح القدير .دمشق , بيروت: دار ابن كثير , دار الكلم الطيب.
22. الطبري, م.ج., 2000 م .جامع البيان في تأويل القرآن, تحقيق: احمد محمد شاكر .مؤسسة الرسالة.
23. الطيبي, ح.ع., 1997م .شرح الطيبي على مشكاة المصابيح, تحقيق: عبد الحميد هنداوي .مكة المكرمة - الرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز.

24. القاضي عياض, ع.م., 1998م .اكمال المعلم بفوائد مسلم, تحقيق: د يحيى اسماعيل .مصر: دار الوفاء للطباعة و التوزيع.
25. القرطبي, م.أ., 1964م .الجامع لأحكام القرآن تحقيق أحمد البردوني وابراهيم اطفيش .القاهرة: دار الكتب المصرية.
26. النووي, ي.ش., 1392 ه .المنهاج شرح صحيح مسلم .بيروت: دار احياء التراث العربي.
27. الهروي, ع.م., 2002م .مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح .بيروت: دار الفكر.
28. الهيثمي, ع.ا., 1994م .مجمع الزوائد ومنبع الفوائد, تحقيق: حسام الدين القدسي .مكتبة القدسي.
29. مسلم النيسابوري, م.ح .المسند الصحيح المختصر, تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .بيروت: دار احياء التراث العربي.

جیاوازی نێوان پێغەمبەران لە قورئان و سوننەتدا
- لێکۆلینەوەیەکی بابەتی -

محمد شریف محمد عثمان
کولێژی زانستە ئیسلامییەکان، زانکۆی سەلاحەددین-هەولێر
mohammedshareef.othman@su.edu.krd

پوختە
ئەم توێژینەوە لێکوڵینەوە لەبارە ئەو ئایەت و فەرموودە دروستانە دەکات کە لەبارەی بەگەورەزانین و ڕێزپێدانی پێغەمبەران بەسەر یەکدا(تفاضل) هاتوون، سەرەتای توێژینەوەکە تایبەت کراوە بە وەڵامی دوو پرس، یەکەمیان: گونجانی ڕێزپێدانی پێغەمبەران بەسەر یەکدا لە ڕووی ژیری یەوە، دووەمیان: دروستی ڕێزپێدانی پێغەمبەران بەسەر یەکدا لە ڕووی شەرعی یەوە، ئینجا گفتوگۆ دەکات لەبارەی ئەو ئایەت وفەرموودە دروستانەی لە بارەی ڕێزوشکۆی پێغەمبەرانی پێشوو – سەلامی خوایان لەسەر بێت- هاتوون، دواتر وتو وێژ دەکات لەبارەی ئەو بەڵگانەی لەبارەی ڕێزوشکۆی پێغەمبەرمان – سەلامی خوای لەسەر بێت- هاتوون، لەکۆتاییدا گرینگترین ئەو ئەنجامانە دەخاتە ڕوو کە توێژینەوەکە پێی گەیشتووە.

وشە گرنگەکان: جیاکاری، پێغەمبەران، ئایەتەکان - فەرموودە.

Preference And Differentiation Among Prophets in Quraan and Sunnah
- Objective Study -

Muhammed Shareef Muhammed Othman
College of Islamic Sciences, Salahaddin University-Erbil
mohammedshareef.othman@su.edu.krd

Abstract
The research deals with a study of the verses and correct hadiths mentioned in the matter of preference and differentiation between the prophets. And the beginning is intended for the answer on two questions: The first one is the possibility of preference between the prophets in mind. The second one is the possibility to prefer between them sharia.
After which it is discussed, the verses and correct hadiths contained in the right of the former prophets.
Then we turn into a discussion of what was stated in the right of our prophet Muhammad (may God bless him and grant him peace).
Finally, we conclude with the most important results that the research reached.

Kyewords: Preference - the prophets - verses - hadiths.